الفصل الخامس

أحوال المخاطبين من أهل الكتاب

اختلاف أحوال المخاطبين من أهل الكتاب

● وتختلف أحوال أهل الكتاب اليوم عن أحوال أسلافهم اختلافاً كبيراً . وأخطر الاختلافات هو نبذ كثير منهم لليهودية والنصرانية ، واعتناق الفلسفات المادية الملحدة . وقد بلغت نسبة الملحدين ٨٠٪ في بعض الدول الأوربية . والبقية منهم تأخذ الدين أخذاً غير صحيح .

- وهذه الاختلافات الجديدة تؤثر سلباً على الجاليات المسلمة التي تعيش في الغرب وتستلزم تطوير الخطاب الديني الإسلامي . فالملاحدة تحللوا من القيم المسيحية واليهودية وانغمسوا في الشهوات واللذات الحسية المحرمة ، من الفحشاء وفعل قوم لوط ، وزنا المحارم ، والمجاهرة بكل ذلك . وشهد العالم أجمع ولي عهد بريطانيا وهو يعلن على شاشات التلفاز علاقته الآثمة مع امرأة ، كما شهد العالم أجمع وسمع الأميرة ديانا - زوجته - وهي تعلن عن ممارستها الخيانة الزوجية . وشغل الناس في القارات الخمس بقصص الفحشاء التي مارسها «كلنتون» الرئيس السابق للولايات المتحدة ، ثم رئيس الجمهورية الفرنسية «ميتران» .

● ويعيش الدعاة في ذلك المناخ الغربي الملوث ولا هَمَّ لهم سوى وقاية أبناء المسلمين من طوفان الإلحاد والانحلال وهذا يتطلب تطوير الخطاب الديني . وعلى الرغم من ذلك اهتدى عدد كبير من الغربيين إلى الإسلام . ويقول الدكتور مراد هوفمان - أحد كبار المهتدين إلى الإسلام في القرن الماضي - وكان سفيراً

لألمانيا بالمملكة المغربية ، إن بعض المراقبين بعيدي النظر يتوقعون : «أن يصبح الإسلام الديانة السائدة في القرن القادم»[1]. ولكن يجب أن نتذكر أن عدداً من المسلمين جرفهم طوفان الإلحاد العام ، والانحلال الشامل . ثم إن الغربيين جاءوا إلى بلاد المسلمين مصممين على نشر ثقافتهم ، بما فيها من مسيحية وما فيها من إلحاد وانحلال[2].

● وأما أهل الكتاب الذين يعيشون بين المسلمين ، فيتمتعون بحرياتهم الدينية كاملة . وقد اندمجوا في الحياة مع المسلمين حتى شاركوهم في الجندية . وتبعاً لهذا لم يعدْ ثمة مسوِّغ شرعي لمطالبتهم بالجزية .

- ويحرص المسلمون على احتضان أهل الكتاب الوطنيين حفاظاً على الوحدة الوطنية ، التي تتعرض للمكائد من جانب الدول الكبرى الساعية إلى إثارة الاضطرابات والانشقاقات والحروب الأهلية بين المسلمين ومواطنيهم من المسيحيين ، كما حدث في لبنان ، وكما حدث في إندونيسيا والسودان .

- هذه كلها اختلافات جديدة في أحوال أهل الكتاب الوطنيين . فلم يعد هناك مجال لدعوتهم إلى الإسلام ، تجنباً لإثارة الفرقة والقلاقل . بل إن الأفراد الذين يرغبون في اعتناق الإسلام لا يُقبل منهم ذلك في مصر - مثلاً - إلا بعد إجراءات رسمية عديدة معقدة ، تشارك فيها الكنيسة القبطية .

● والحق أن الضعف الذي أصاب الأمة المسلمة هو الذي يحدد علاقتها بأهل الكتاب سواء الذين يعيشون في أوساط المسلمين والذين يعيشون في الدول الأجنبية ، بل إن هذا الضعف هو الذي فرض عليها المهادنة في مواجهة الاعتداءات الصهيونية والاستعمارية في البوسنة والشيشان وكشمير وتركمانستان وأفغانستان

---

(١) انظر كتابه : «الإسلام كبديل» ؛ تعريب عادل المعلم ؛ الشروق الدولية ؛ ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م ط١ ص ٩ .

(٢) راجع الفصل الأول من هذه الدراسة .

والعراق . لأننا لا نستطيع أن نعادي الولايات المتحدة وروسيا والهند والصرب ، والصين[1].

● وقد نزلت بالمسلمين مِحَنُ عديدة ، فلم نعد نملك القوة لقتال الكفار المحاربين للإسلام ، أو إجراء المباهلة مع قادة الكنيسة في الغرب ، أو غير ذلك مما فعله سلفنا العظام الأقوياء .

- لكن أمامنا فُرصاً عديدة متاحة للدعوة عَبْر وسائل الإعلام الحديثة ، وخصوصاً القنوات الفضائية . وقد اتخذت الجاليات المسلمة في الغرب المبادرة ، واستأجرت بعض تلك القنوات فعلاً وهذا تطوير مؤثر في الخطاب الديني .

- وتلعب المراكز الثقافية الإسلامية في الغرب دوراً في الدعوة إلى الإسلام ، لكنها لا تكفي لأداء مهمات الدعوة على الوجه الأكمل ، فهي ضعيفة وفقيرة مالياً وعلمياً . والمسلمون في الغرب شراذم متباعدة . وبعد ٢٠٠١/٩/١١ فزعت الدول الغربية من الوجود الإسلامي بها ، وأخذت تدس أنفها في شئون الجاليات المسلمة ، على نقيض ما تقتضيه العلمانية السائدة ، وشرعت في إقامة اتحادات عامة لكل المسلمين ، تختار الدولة المعنية المرشحين لقيادتها ، بحيث تضمن طاعتهم لتعليمات الموظفين ، دون اعتبار لمصالح الجالية المسلمة[2]. وهذا كله يتطلب منا طرقاً ومناهج حديثة للدعوة[3].

---

(١) والمهادنة جائزة شرعاً ؛ فيقول ابن رشد رحمه الله إن بعض الفقهاء أجازها : «ابتداءً من غير سبب إذا رأى الإمام في ذلك مصلحة للمسلمين ، وقوم لم يجيزوها إلا لمكان الضرورة الداعية لأهل الإسلام ، من فتنة أو غير ذلك ، إما بشيء يأخذونه منهم ، وإما بلا شيء . «بل ذهب بعض الفقهاء إلى حد القول إنه يجوز دفع الجزية للكفار لمحنة نزلت بالمسلمين ، و لقلتهم وضعفهم ، ومن ثم انتهوا إلى القول : إن الهدنة جائزة في كل حال . ابن رشد ؛ بداية المجتهد ؛ جـ ١ ص٥٣٠ ؛ وانظر : الأم للشافعي ؛ جـ ٤ ص ١١٠ .

(٢) راجع كتابي : مرض كراهية الإسلام ؛ دار الجمهورية ؛ ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٣م ؛ ص ٣٥-٣٧ .

(٣) انظر الفصول أرقام ١٠ ، ١١ ، ١٣ ، ١٤ من هذه الدراسة .

● وفي أعقاب صدور فتوى الخميني بإهدار دم سلمان رشدي كتبت أقول إن الصواب رَصْدُ مقدار الجائزة التي رُصدت لمن يقتله ، لبناء مؤسسة للسيرة والسنة النبوية الشريفة في قلب أوربا ، لنشر حقائقها بكل الوسائل الممكنة ، وبذلك نقضي على سلمان رشدي وأمثاله في كل مكان وزمان . ومعظم الشعوب الغربية توّاقة للمعرفة ، وتحترم الحقائق [1]. ولا زلت أعتقد بأن مثل هذه المؤسسة ضرورة دَعَويَّة وعلمية وسياسية . والمرْدود من ورائها يمكن أن يؤثر في السياسات الغربية على المدى البعيد .

صعوبات أمام الدعوة في أوربا ـ إيطاليا نموذجاً

● ذكرت فيما سبق أنه قبل قرنين من الزمان لم تكن هناك جاليات مسلمة في أوربا الغربية وأمريكا . فهذه الجاليات واقع جديد في حياة المسلمين والأوربيين . وأحوال المسلمين من أبناء الجاليات ليس لها مثيل في ماضي الأمة المسلمة . حقاً كانت هناك أقليات يهودية ونصرانية تعيش في بلاد المسلمين ، ولكن لم تكن هناك جاليات مسلمة في أوربا الغربية أو أمريكا .

– وتواجه الدعوة مشكلات نوعية كبيرة في المجتمعات الغربية . ونعرض لهذه المشكلات في إيطاليا كنموذج لما يحدث في الدول الأخرى في الغرب .

– يضم المجتمع الإيطالي المسيحي جالية يهودية وأخرى مسلمة . ويزيد عدد المسلمين على مليون نسمة . ولقد واجه المركز الإسلامي في روما ظروفاً عصيبة خصوصاً بعد يوم ٢٠٠١/٩/١١ حيث كثرت الاتهامات للمسلمين بأنهم إرهابيون ودمويون . . . إلخ . وحاول الدعاة تطوير الدعوة في مواجهة تلك الاتهامات بإتاحة

---

(١) أذكر حادثة وقعت لي شخصياً في جامعة «بوردو Purdue» في ١٩٩٤/٤/١٠ بعد أن ألقيت محاضرة عن «الآخر في الأخلاق الإسلامية» اجتمع حولي خمسة من الأساتذة ، ودار الحوار حول العلاقات الإسلامية الأمريكية ، فما أن انتهيت من عرض رأيي حتى بادر أحدهم قائلاً : «نحن الأمريكيين منافقون!» وكررها مرتين . فقد اقتنع بأن سياسات بلاده خاطئة وأنانية ومنافقة! وتشيع بين الأمريكيين خرافات كثيرة عن الإسلام ، يستطيع الداعية الماهر أن يبددها ، ويرسخ حقائق الإسلام العظيمة مكانها .

الفرصة للإيطاليين للالتقاء بهم في المركز للإجابة عن تساؤلاتهم وتبديد الأفكار المغلوطة عن الإسلام ، وتفنيد الاتهامات الباطلة التي ترددها وسائل الإعلام . لكن كم من الإيطاليين يمكن أن يكلِّف نفسه عناء الذهاب إلى مقر المجلس الإسلامي ؟!

- وذهب بعض الدعاة من أساتذة الجامعة المسلمين ـ بالاتفاق مع بلدية روما ـ إلى المدارس الإيطالية لتعريف التلاميذ بالإسلام . ويقول الدكتور عبدالله رضوان الأمين العام للمركز الإسلامي في روما ، إن هذه التجربة نجحت نجاحاً كبيراً ، الأمر الذي شجعهم على العمل على التوسع فيها ، وهذا مثال جيد لتطوير الخطاب الديني .

- وإزاء تحيز الإعلام ، وإغلاق القنوات الفضائية الرسمية في وجوه المسلمين ، اتجهوا إلى القنوات الخاصة . وقد سمحت إحداها ببث برنامج إسلامي أسبوعي يتضمن لقاءات مع علماء وأساتذة مسلمين ويقدم فتاوى للجالية المسلمة .

- ويشكو الدكتور عبدالله رضوان من نقص المطبوعات باللغة الإيطالية كما يشكو من وجود أخطاء في الترجمة الإيطالية لمعاني القرآن الكريم . ونَقْصُ المترجمين مشكلة أخرى تواجه المركز في نشاطه الدعوي .

وربما كان السبب الرئيس لمعظم المشكلات هو عدم اعتراف إيطاليا بالإسلام كدين معتمد[1].

● وهكذا بَرَزت أمام أعين الدعاة المسلمين في إيطاليا المهام التي يجب النهوض بها : وهي السعي لاعتراف إيطاليا بالإسلام والتوسع في إرسال الدعاة إلى المدارس والجامعات ، وحل مشكلات الترجمة وتوفير ترجمة جديدة لمعاني القرآن الكريم ، وكذلك الكتب الإسلامية باللغة الإيطالية للرد على الأباطيل وشرح

---

(١) من حوار أجرته المحررة علا مصطفى مع الأمين العام للمركز ، ونشره الأهرام يوم ١٤٢٤/٩/٢٩هـ .

عقائد الإسلام وشرائعه وأخلاقياته . ولعل إنشاء قناة إسلامية كفيل بسَدِّ النقص في عدد الدعاة ، وضيق الأفق المسموح به في القنوات الخاصة .

● وهذا هو أحد الاقتراحات لتطوير الخطاب الديني .

● وإذا لاحظنا أن ظروف الدول الأوربية بصفة عامة متشابهة ، كان إنشاء مؤسسة أوربية إسلامية للدعوة خير وسيلة لإزالة سوء الفهم الواسع العميق لدى الأوربيين عن الإسلام والمسلمين . وَلْتكن البداية قناة فضائية ، ثم دار نشر باللغات الأوربية الأساسية ، ثم معهد للترجمة ، وهكذا . وسوف تستفيد الجاليات المسلمة من هذه المؤسسات .

- وأعتقد أن دراسة جدوى هذه المؤسسة ستظهر فوائد اقتصادية وسياسية للدول الإسلامية ، فضلاً عن الخدمات الجليلة للدعوة الإسلامية في أوربا . والمسلمون في أوربا الآن أكثر من خمسة وعشرين مليوناً ، وفي روسيا مثلهم . والحفاظ على دين الأجيال الجديدة واجب في أعناق المسلمين جميعاً . والمؤسسة المقترحة ستكون عاملاً فعالاً في خدمة الإسلام والغرب في آن واحد ، لأن سوء الفهم يضر الطرفين .

● ويحذرنا الشيخ محمد الغزالي من أن سوء حال الأمة المسلمة في داخل بلاد المسلمين ذاتها يؤثر على فعالية الدعوة في الخارج ، لأنه : « لا يُقبل من امرئ رَثَّ الملابس أن يدعو إلى الأناقة »[1].

● وأنا أعتقد أن الدعاة يجب أن يميزوا بين « الإسلام » وبين « واقع أحوال المسلمين » للتخفيف من أثر تلك الحقيقة . والسلوك الحسن لأفراد الجاليات المسلمة ، وكذلك سلوك الدعاة الراقي ، له أثره الكبير في تحسين صورة الأمة المسلمة . يضاف إلى ذلك بعض الجوانب الإيجابية في حياة المسلمين ، مثل نظافة المجتمعات المسلمة من الخمور ، والشذوذ الجنسي والجريمة ، إذا قورنت بالغرب .

---

(١) انظر كتابه : علل وأدوية ؛ دار القلم ؛ دمشق ؛ ط ١ ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م ، ص ٢٣٧

وكذلك تماسك الأسرة ، وقوة الأواصر الاجتماعية ، وجوانب أخرى عديدة يمكن تصويرها وتقديمها عبر القنوات الفضائية . فملابسنا ليست كلها رثة وملابسهم ليست كلها أنيقة !

التخويف من الإسلام في الغرب : هوس هستيري !

● ولقد اتخذت الدعوة المضادة للإسلام أشكالاً عديدة في عهد النبي ﷺ . من ذلك على سبيل المثال تخويف العرب من دعوته . فهذا الطفيل بن عمرو الدَّوسي يزور مكة ، فَيُهْرَع إليه نفر من قريش ، ويقولون يُخوِّفونه : يا طُفَيل ، إنك قدمت إلى بلادنا ، وهذا الرجل الذي بين أظهرنا قد أعْضَل بنا (يعني : اشتد أمره) ، وقد فرق جماعتنا ، وشتت أمرنا . . وإنا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا ، فلا تكلمنَّه ولا تسمعنَّ منه شيئاً . واستجاب الرجل لهم فوضع في أذنيه قطعاً من القطن لكيلا يسمع كلام النبي! لكنه سمع شيئاً من كلامه الشريف وهو يصلي عند الكعبة ، فأحبَّه ، وذهب وراءه إلى بيته وسمع المزيد وأسلم ، ودعا قومه فأسلم بعضهم ، وتأخر بعضهم ثم أسلموا[1].

● والآن تتخذ الدعوة المضادة للإسلام في الغرب هذا الأسلوب الجاهلي نفسه للصد عن سبيل الله . وقد بلغ التخويف من الإسلام حد الهوس الهستيري في كتاب «الحرب الشاملة سنة ٢٠٠٦» لمؤلفه «سيمون بيْرِشْ» ، سنة ١٩٩٩ . والمؤلف شغل منصب مساعد رئيس أركان الحرب البريطاني للشئون السياسية ؛ فهو شخصية عسكرية وسياسية مرموقة ، لكن كتابه حفل بالدعاوى الخرافية . وهو يزعم أن الحرب الشاملة ستندلع سنة ٢٠٠٦ بين التحالف الإسلامي العظيم ومعه روسيا ، وبين حلف الناتو ومعه أمريكا . وتبدأ الأحداث بثورات إسلامية توحِّده ، سنة ٢٠٠٤ ، تحت قيادة صلاح الدين الجديد الذي نصفه كردي ونصفه ألماني! وسوف تقع ثورة جديدة في روسيا تأتي بحكومة عسكرية يسيطر عليها صلاح الدين . وسوف يستعمل صلاح الدين السلاح الكهرومغناطيسي الذي يطلق نبضاً

---

(١) سيرة ابن هشام ؛ جـ ١ ص ٣٨٢ - ٣٨٥

إلكترونياً جباراً يدمر كل شيء ، وبذلك يعيد الغرب في لحظات إلى مستوى العصر الحجري !(١)

- ومن الجلي أن هذا الكلام تنبؤات وهمية لا أساس لها . والغرض هو التخويف من الإسلام ، والتحريض ضده . وعلى الدعاة أن يتصدُّوا لذلك ، لأنه تحريض خطير للغرب ضد الإسلام والمسلمين .

● والعداء للإسلام بين أهل الكتاب في أوربا وأمريكا له أسباب قديمة وأسباب جديدة ، يجب أن تكون معروفة للدعاة .

- في القديم انتهت الحروب بين الأمة المسلمة التي وُلدت في جزيرة العرب بأن طُردت الإمبراطورية الرومانية المسيحية من بلاد الشام ومصر وشمال إفريقيا ، بل إن أمتنا النجيبة سرعان ما اجتازت البحر الأبيض في نهاية القرن الأول الهجري ، لتنشئ دولة إسلامية على التراب الأوربي في الأندلس . وذكرى تلك الأحداث يستحيل أن تُنسى ، لأنها تاريخ طويل يدرسه الأوربيون في المدارس والجامعات .

● ويرصد الأوربيون اليوم ظواهر إسلامية يعتبرونها خطراً على الثقافة الأوربية المسيحية . من ذلك ـ مثلاً ـ تكاثر أعداد المسلمين في الدول الأوربية والولايات المتحدة الأمريكية ، وتمسكهم بدينهم ، واهتداء أعداد من الأوربيين والأمريكيين كل عام إلى الإسلام ، ومنهم مفكرون ومثقفون وفنانون وأساتذة جامعات . ولهذا وجدنا القس الأمريكي الشهير بسقطاته الأخلاقية ، «سواجارت» يصرخ في الفضائيات العديدة قائلاً إن : «الإسلام يغزو بلاد الغرب بصورة مذهلة». وإن : «لندن عاصمة فكتوريا التي كانت تحكم العالم الإسلامي كله أصبحت تأوي أنشط مركز إسلامي في العالم ، وإن عدد المراكز الإسلامية في الولايات المتحدة أصبح يفوق عدد أعضاء الحزب الشيوعي الأمريكي .

---

(١) راجع كتابي : مرض كراهية الإسلام ؛ ص ٤٩-٥٣ .

● وفي حين يتراجع الحزب الشيوعي ، يتزايد عدد المراكز (الإسلامية) ، وتقوى جموع المسلمين»[1].

- وفي شهر فبراير عام ٢٠٠٤ أصدرت الجمعية الوطنية الفرنسية ـ وهي المجلس التشريعي الفرنسي ـ قانوناً يوم ٢٠٠٤/٢/١٠ يحظر على النساء المسلمات ارتداء الخمار في المدارس الحكومية[2]. وهذا القانون يتعارض مع مواثيق حقوق الإنسان التي تنص على حرية العبادة لأتباع كل الديانات .

- وهذا القانون ، وبالأغلبية الكاسحة التي نالها في المجلس التشريعي ، يعبر عن شعور بالضعف الثقافي أمام الإسلام ، وقد صرحوا بأنهم يخشون تحول الجماهير الفرنسية إلى الإسلام ونبذ العلمانية والمسيحية ، والثقافة الأوربية بصفة عامة . فالمسألة ليست قطعة من القماش تغطي بها المرأة المسلمة شعرها وعنقها ، ولكنها الحشمة والاحترام والستر والسلوك الأخلاقي النظيف الذي يميز المسلمات ، وبذلك يغري الأجانب على اعتناق الإسلام .

● هذه بعض الاختلافات التي طرأت على أحوال المخاطبين من أهل الكتاب ، ومن المسلمين الذين يعيشون بينهم . وهي اختلافات عميقة ، وداخلة في صلب العقائد الدينية . وآثارها على الدعوة والدعاة عديدة وثقيلة ، وتحتاج إلى تطوير واسع وعميق للخطاب الديني ، إلى «البصيرة» ، وإلى التماس أحدث وسائل التأثير والاتصال ، مع المثابرة والصبر على المكاره .

* * *

(١) انظر مجلة المختار الإسلامي ؛ شوال سنة ١٤٠٨هـ .

(٢) نشرته جريدة الأهرام اليومية في عدد ٢٠٠٤/٢/١١هـ .